تاريخ لأصالة امتنا ...

د. توفيق اليوزبكي

يعتبر الوطن العربي اول موطن للحياة والحضارة وميدان انشط العمليات الاجتماعية حيث شهدت أرضه تفاعلا متواصلا بين الانسان والبيئة ادى الى ان يتكون بيئيا وفق سمات خاصة طبعت سكانه وتطورهم التاريخي ونشاطهم الحضاري . ولعل ابرزها طابع التنوع والوحدة . لقد عبر سكان هذا الوطن عن حيويتهم التاريخيه بمفزات حضاريه متتالية اتسمت بالتواصل وبأن المتحقق منها يقود الى تحقق آخر على يد جيل جديد .

لقد امتزج النشاط الحضاري لسكان الوطن العربي بالمعتقدات الروحية ، فادى لان تكون عملية النضج الفلسفي والمحتوى الاجتماعي للتطور شيئا واحدا يشكل اضافة حضارية لا تتوقف عند حدود التامل ، فأصبحت هذه الازمة ، اضافة الى حيوية الفعل الحضاري ، تمتاز بخلق العقائد والتي كان آخر مراحلها المتحققة الاسلام .

غير ان هذا الوطن أصبح موضع صراع ، وشهد عمليات غزو واحتلال أدت الى تعطيل قدراته وافراغ تاريخه من جوهره وأعادة ترتيب أوضاعه من خلال فلسفة التجزئة بحيث يصبح له دافع جديد غير واقعه الحقيقي .

لذلك يجدر في اية دراسة لتاريخ الامة العربية أن تتجه بشكل مغاير لكل الجهود المطروحة الآن في ميدان البحث التاريخي . لتقوم باعادة كشف تاريخ الامة بشكل يميز بين مرحلتين : مرحلة عبرت فيها الامة عن ارادتها وعاشت ذاتها المعطاءة الانسانية ، وبين مرحلة فرضت فيها على الامة ذات أخرى تختلف عنها وتناقضها ، مرتكزة الى ارادة خارجية استخدمت كل صيغ المجابهة والتزييف والطمس والتخريب الثقافي والحضاري . كتابة تاريخية تكشف للامة أصالتها التاريخية وتعبئها في استيعاب روح العصر الحاضر بما يعنيه من تقدم علمي وازدهار ايديولوجي . ان هذه الكتابة في استلهامها (الاصالة) واستيعابها (المعاصرة) تعبر فقط عن الفهم الايديولوجي لحركة الثورة العربية فهما قوميا اشتراكيا ثوريا يطرح المجابهة الحضارية بمفهومها الشامل وتبرز المصادر الاساسية للخصوصية القومية (خاصية الوطن) و (خاصية الامة) و (خاصية الحركة التاريخية) .

ولعل أبرز المشاكل التي تواجهها كتابة التاريخ العربي ان الشائع من المعرفة التاريخية يعبر عن كل المواقف الا الموقف الخاص بالامة ، فقد تصدى لكتابته يوما ما المستشرقون . ورغم كل ما يقال عن طبيعة جهودهم فان مجرد بدئها مع حملة التبشير بالاحتلال الاوروبي يجعل تلك الجهود تبث مناخا غير عربي وتطلعات غير عربية . ثم تصدى مفكرون ومؤرخون

آخرون لكتابة التاريخ العربي منطلقين من اعتناق فكري وسياسي لا ينظر الى الامة نظرة داخلية نابعة من مخاضها. فاضحت جهوده هي الاخرى تبشيرية لمذهب يسعى لتجذير موقعه . أما الكتاب العرب فانهم بدأوا من حيث انتهى كلا الطرفين . فاصبحت استنتاجات أولئك الدارسين الاول مسلمات لديهم أبعدتهم أكثر عن تطور تاريخهم وعن اتجاه الفكرة التاريخية للامة . من هنا تصبح أية كتابة للتاريخ مشروطة باستكشاف التاريخ العربي والعودة الى منابعه الاساسية ودراستها واعادة تقييمها ، محكومة بالوعي و (بالاصالة) و (المعاصرة) . مدركة انها تتجه الى التاريخ توجه الامة المتحفزة . ويبلغ هذا الادراك نضجه التام في تحديد موقفه من حقبتين (الماضي) و (الحاضر) وصولا الى المستقبل .

ولا بد من تحديد بعض الاسس التي يمكن اعتمادها في كتابة تاريخ الامة العربية وهي :

١ ــ تحديد الفلسفة التي يمكن الاتكاء عليها في اعادة كتابة التاريخ . وتنحصر هذه الفلسفة في حدود تراث الامة الفكري والحضاري .

٢ ــ التأكيد على ان تاريخ الامة العربية لا ينحصر في تشكيل لجان مهمتها توزع المفردات ، وكأن المسألة انتهت . لان القضية لا تقف عند هذه الحدود بل تتعداها الى الالتزام بمنهج تاريخي محدد ضمن اطار تبرز فيه مكانة الامة ودورها في الحضارة الانسانية .

٣ ــ تغذية ورقة العمل بأبعاد جديدة . بحيث تشكل ورقة عمل قومية ، ثم تتسع لتستوعب أبعادها في مؤتمر عالمي .

٤ ــ ان ورقة عمل تاريخ الامة العربية يجب أن تستهدف ابراز كل المحاولات في مجالات المنهج وما يتعلق به ، والدعوة الى استقطاب جميع المهتمين من مستشرقين وعرب في هذا المجال .. اشارة الى التأكيد على ترسيخ اهتمام الجامعات العربية ، ودورها في هذه المحاولة .

٥ ــ الكتابة وفق منظور ورقة العمل الجديدة ، بحيث لا تطرح وتسود نظرات سائبة ، أو بمعنى آخر (المقولات) الضيقة التي ينظر من خلالها للحدث التاريخي .

٦ ــ ابراز القوى الفاعلة والمحركة في الحدث التاريخي . فقد سار في معالجات الاحداث التاريخية في التاريخ الاسلامي على كشف دور البطل . أي الخليفة هو المحرك للتاريخ .. مما أدى الى سيادة هذه النظرة التعسفية ، التي تغفل العناصر المحركة والتي تتحدد في (الامة) أو القوى الشعبية .

٧ ــ التأكيد على ابراز عوامل التخلف والاعاقة ، الى جانب عوامل الازدهار ، أي عملية الكشف للتقدم الذي ساد . وللانحسار الذي شاع .

٨ ــ التأكيد على ان التاريخ العربي انطبع بميزتين هما : مرحلة العطاء الحضاري ، ومرحلة الانكسار .. ومرحلة العطاء واضحة وتكشف عن ذاتها للعدو والصديق ، غير ان الغموض يسود في تناول مرحلة الانكسار .. فالانكسار أو الانحسار قد تختاره الامة نتيجة للهجمة الشرسة من قوى استهدفتها ، وبالتالي يصبح الانحسار قدر الامة . تختاره وعاء وقتيا . تحافظ عن طريقه على البذور الحياتية للامة .

٩ ــ التأكيد على تحديد جهاز لغوي تاريخي يتميز بمفاهيمه وصيغه المحددة المعاني . لان دقة هذا الجهاز تؤدي الى دقة الكتابة التاريخية .

١٠ ــ ابراز (أثر) طبيعة . وظروف الوطن العربي في تحديد سمات حضارة الانسان في التاريخ القديم ، وابراز الهوية العربية في التاريخ العربي الاسلامي والحديث .

١١ ــ الاشارة الى ان المصادر التاريخية التي تناولت تاريخنا العربي قد سجلت الحوادث من زاوية خاصة .. وبالتالي يجب التسلح بنظرة فاحصة في الانتقاء وفي اشتقاق حقائق جديدة من المقدمات التي طرحها المؤرخ .. والتي حاول أن يخفيها لسبب أو لآخر .

١٢ ــ التأكيد والحرص على وحدة الشخصية العربية في خضم الصراع في عالمنا الراهن ، ومن أجل رفض كل (تغريب) للهوية العربية وتحديد سماتها الخاصة بها ، في أتون الصراع الهائل الذي تحدد في التقدم العلمي وسيادة التيارات الفكرية المعاصرة .

د. توفيق سلطان اليوزبكي

عميد كلية الآداب بجامعة الموصل